ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

مجاعة 1868 بالجزائر
من خلال نصوص محلية وأخرى فرنسية

د. كمال بن صحراوي*

Abstract: The 1868 famine was a real national tragedy with multiple consequences, as it increased the mortality rate, and it resulted in some dangerous social phenomena like migration and an important increase in number of beggars. French went bragging about what they have given to the "hungry " forgetting that they were the cause of their condition, some of them even used this "cry of hunger" to achieve their terrible projects like "Missionary "that found in this crises a new outlet especially with the efforts of Lavigerie. The writing mirror reflected the reality of Algeria during the years of "crisis" either local texts like the ones left by Mohamed EL-SALEH Ben EL-ANTRI or the French texts wrote by those who lived through "the famine" analyzing its effects based on some particular cases, or through the reports they gave the official authorities concerning the aid reserved to reduce this social phenomenon effects.

Even though the writer of "Constantine famines" had compassion with the French efforts given to minimize the intensity of the problem and urged the other victims to appreciate the act of the French government, the French texts were full of criticism to the colonial policies followed to the same purpose, and they attacked the French possession characterized by stinginess compared with the magnitude of the Algerian tragedy. But in the same time it didn't defend the indigenous.

These texts gave terrifying scenes about hungry infants and oppressed orphans. A writer mentioned that no one in Europe ever knew the truth about what happened in Algeria.

مقدمـة: وقعت الجزائر ضحية الاستعمار الفرنسي عام 1830، وكانت المقاومة المحلية حول العاصمة، ثم توسعت كلما توسعت رقعة الاستعمار حتى صارت وطنية. وكان الريف مجالا خصبا لهذه المقاومات التي لم يخلُ منها جزء من الوطن. غير أن التوسع الاستعماري صاحبته مخططات سياسية واستراتيجيات عسكرية رغم ما قيل عن تخبط الفرنسيين خلال المرحلة الأولى وعدم قدرتهم على ضبط آليات التعامل مع البيئة الجديدة. وكانت هذه التحولات تشكل مع

* أستاذ محاضر ب في التاريخ الحديث والمعاصر– قسم التاريخ–كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية– جامعة ابن خلدون– تيارت.

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

الأيام عبئا متزايدا على الجزائريين، خاصة مع انتهاج سياسة استعمارية ترمي إلى إفقارهم بهدف إضعافهم وإضعاف المقاومة تبعا لذلك.

ومن هذا المنطلق كانت السيطرة على أجود الأراضي وأخصبها لتمرير ملكيتها للوافدين الجدد الذين جنّستهم فرنسا إكثارا لأعداد مواطنيها بالجزائر، وكانت العقوبات الجماعية إحدى السبيل المؤدية إلى هذا. كما كانت القوانين الاقتصادية بابا واسعا ولجت من خلاله الإدارة الفرنسية إلى تحويل الملكية في انتظار السيطرة على الأراضي، وهو ما عبر عنه صاحب المرآة بقوله: "توصل الفرنسيون أو سيتوصلون إلى امتلاك جميع الملكيات في البلاد. إنني لا أعلم أن هناك ملكية واحدة قد اشتريت بكيفية عادية وشرعية. وليست هذه العقود كلها إلا كِراءات دائمة، وقانوننا لا يعترف بصحتها"[1].

وكنتيجة لهذه السياسة توسعت مساحات المِلكيات الأوربية التي تم استحداثها في الجزائر حتى بلغت مليوني هكتار من الأراضي الصالحة للزراعة مقابل 4.5 مليون هـ ظل الجزائريون يحتفظون بها، وأصبح معدل المساحة المستغلة من قبل المسلمين 11.6 هـ أي 10 مرات أقل من معدل المساحة المستغلة من قبل الكولون (119 هـ)، أما الأراضي التي يستغلها الأوربيون فهي من حيث القيمة أحسن مما بقي للمسلمين بأربعة أضعاف أو خمسة، ذلك أن المعمرين سيطروا على أجود الأراضي كالمتيجة ومنطقة وهران، ولم يبق للمسلمين سوى 15% أو 17%.[2]

وانعكست هذه الإجراءات على المجتمع الريفي بشكل خاص لأنه المتضرر الأول من ممارستها، وهذا ما نستشفه مما ذكره محمد العربي بن أويس بن محمد بن عبد القادر المعروف بابن خدة[3] صاحب "زهر البساتين في بيان الاسم الأعظم والبراهين" حيث تحدث عن حالة البلاد بعد أن "خُرِّبت الجزائر وثغر وهران بسبب الروم الفرنسيس... فخلت الأرض من الحكام، وكثر القتل والهرج والخصام، وتعطلت الشرائع وعمت الذرائع، وذلك من عمالة تونس إلى بلاد وجدة، والمؤمن في الحيرة كالشاة في الليلة المطيرة"[4].

هكذا إذًا تأثر الريف حتى إذا حل القحط والجراد لم تكن البنية التحتية قادرة على احتواء الأزمة الغذائية فكانت المجاعة التي أهلكت الحرث والنسل خاصة وقد تكررت، ومنها مجاعة 1838 التي أعقبت سقوط قسنطينة حتى طغى الناس بعضهم على بعض. وكان أشد هذه

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

الأزمات تلك التي عرفتها سنة 1866 سيما وقد استمرت ثلاث سنوات. فهل بذلت السلطة الفرنسية ما يجب من الجهد للوقوف مع الأهالي؟ ومن تكفل بدور المنقذ إذا كان لها بعض الحضور؟ وما موقف الكتابة التاريخية المحلية من هذه القضايا؟ ثم كيف انعكست المجاعة على الحياة الاجتماعية الجزائرية خصوصا في شقها الديني؟ هذه وغيرها مسائل نحاول أن نعالجها في هذا المقال.

المجاعة من خلال محمد الصالح بن العنتري: ألف العنتري هذا الكتاب عام 1870 بطلب من الضابط دولير المكلف بشؤون العرب بقسنطينة، والذي أراد أن يتعرف على أحوال المنطقة وأهلها من خلال العنتري الذي اطلع على كثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية من خلال المكتب العربي الذي كان يشتغل به، وعالجها بنوع من الدقة والتفصيل لكن أيضا بنوع من التحيز للطرف الفرنسي، وهذا ليس بجديد فقد ألف سابقا كتابا آخر "فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها" وكان التأليف بإيعاز من الضابط بواسوني لضرب ما تبقى من النظام العثماني بالجزائر[5].

حدثنا العنتري أن مجاعة كبرى وقعت ببلد قسنطينة سنوات 1866-1867-1868 وكانت السنة الوسطى أشد إضرارا بالناس وأشد بأسا، وكان سببها القحط ويبس في الزرع، وتزامن ذلك مع نزول الجراد فارتفت الأسعار نتيجة لذلك كله ولجأ الناس إلى أكل الحشيش وغيره، ولجأ بعض المصابين إلى أكل ما لا يُباح أكله أصلا كالهر والدم والميتة[6].

وقد وُصفت هذه المجاعة بالسوداء لكونها مظلمة ليس فيها رحمة للخلق، فالأغنياء افتقروا وتبدلت أحوالهم والفقراء أهلكتهم ودمرتهم تدميرا كأن لم يكونوا بالأمس. وقد بدأت المأساة بفساد الزرع فأُعدم حصادُه بُرا وشعيرا، ثم جاء دور المواشي بعد أن قل العلف فأهلكتها "الرهمة" وهي مرض يصيب البقر والثيران، وانتهت الكارثة إلى انتشار الوباء وموت كثير من الخلق. وبعد أن وقع هذا كله جاء الجراد عام 1868 فأهلك الحرث والنسل ولم ينجُ من المزارع إلا القليل، وكانت الزراعة أصلا ضعيفة لما فيها من المشقة على الفلاحين. وكنتيجة لهذا كله ارتفعت الأسعار وزادت، ولم يعد ممكنا لا البيع ولا الشراء بسبب انعدام المال الذي لا يُكسب إلا بالتحصيل.

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

ولعل من الأسباب التي حالت دون موت عدد أكبر تدخلَ السلطات الفرنسية بتزويد الناس بالحبوب على وجه السلفة: **"ولولا فضل الدولة الفرانسوية وتعاطفاتها الخيرية وإحسان ولاتها على كثير من الخلق بسلف الحبوب ونحوها لضاع الناس بأجمعهم، أو يحل بهم مثل ما حل ببلد تونس وأهل وطنها لا محالة"**(7)

ويبدو انتصار العنتري للسلطة الفرنسية والدفاع عنها لكنه يتخبط في الرأي والرأي المضاد، حيث يذكر أن الناس ربما أكل بعضهم بعضا يومئذ(8)، وفي الصفحة الموالية يتحدث عن أخبار مفادها بيع الناس لبيوتهم التي تقيهم الحر والبرد ثم يكاد ينفيها لعلاقتها بالسلطة: **"فالظاهر أنه غير صحيح ولا يخطر بالبال كون الإذن صدر به ولاة الأمر والنهي، مع أنهم مجتهدون في الأفعال الحسنة التي ترضي الخاص والعام فذلك بعيد جدا. ويدلنا على عدم صحة ما شوهد من ولاة الدولة وقتئذ من (التحضيض) على فعل البر حالةُ نزول المصيبة بالناس وذلك أمر مشهور غير خاف على أحد. كيف وقد تقرر وقوف جانب الدولة هنا على الضعفاء بالبذل والعطاء وإجراء مؤونة لهم وجعلها أماكن معلومة لهم يأتون (فيها) في كل قرية وناحية من النواحي يبيتون ويأكلون ويشربون"**.

ثم يحاول العنتري إقناع الآخرين بضرورة شكر فرنسا بسبب ما تقدمه من معونات للناس بل بالخضوع التام لها، ويقدم نفسه مثالا حيا لهذه "الإنسانية" التي أدركته شفقتها **"في ذلك الوقت العسير حين أتلفت الجائحة والجراد حراثتي، وماتت مواشي في تلك السنين الثلاثة المتقدمة"**(9)

لقد خلفت المجاعة الكثير من المتشردين الذين يسميهم العنتري "السبي" يريد بهم "السايبين" كما يُعرفون بالعامية، وهم الذين أصابتهم الجائحة فتفرقوا في البلاد، وصاروا يقطعون الطرق مما أوجب تدخل الدولة حيث شكلت فرقا بوليسية تجوب الأنحاء وتجمع هؤلاء لتردهم إلى المناطق التي قدموا منها، أو إلى الملاجئ التي أعدها لهم "البايلك". وهو هنا يستخدم مصطلحا يعود إلى الفترة العثمانية للحديث عن "العمالة" بالمصطلح المتداول في الفترة الاستعمارية.

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

غير أن "السايبين" لم يكونوا يرضون بالعيش في الملاجئ، بل كانوا يفضلون الانتقال من مكان إلى آخر يسألون الناس العطاء، لذلك صارت الشرطة تقيدهم بالحبل، بل تربط أعدادا قد تصل إلى العشرين في حبل واحد، ولذلك سمي العام "بعام الحبل" وصار الناس يعيّر بعضم بعضا بذلك.

وفي معرض الرد على سؤال افتراضي قدمه العنتري حول أسباب عدم الاستفادة من خيرات السنوات السابقة للصمود أمام سنوات القحط أجاب قائلا: **"إن الحراثة قد قل (قلت) بأضعاف قبل جائحة تلك السنة بمدة سبع سنين متوالية كما لا يخفى سيما في أراضي السباخ فإنك لا تجد في بعض السنين منها من يرد زريعته (أي يحصل على مقدار ما بذره عند الحرث) فضلا عن الفائدة، وهذا في الغالب بخلاف السنين السالفة قبلها، فإن الأراضي كانت تصيب جدا (أي تعطي غلة معتبرة) وينجح الزرع فيها... وسائر المطامر والرتب كلها مملوءة به"**[10].

ورغم دفاع العنتري عن الإدارة الاستعمارية فإنه أقر بأن النظام السائد نتجت عنه تجاوزات كبيرة ساهمت في هذه الأزمة العامة، ونقصد هنا تكاليف الفعل الفلاحي المرتفعة خاصة المتعلقة بكراء الأراضي: **"فمن غلاء كرائها وارتفاع سعرها ومغرمها على الفلاحين بها فلا يتأتى لهم ادخار الزرع بل ما يتحصل لهم يبيعونه لخلاص الكراء ولا يكفيهم. فذلك هو السبب الذي أتلف ذخيرة الزرع من الأراضي وصيّرها خالية"**[11]

ومما نتج عن هذه المجاعة قلة السيولة المالية حيث صعب على الناس الاحتفاظ بأموالهم في ظل ارتفاع الأسعار بشكل كبير حتى إن الخبز ارتفع سعره 04 مرات، والقمح بلغ ما بين 60 و70 فرنكا، ولتر الزيت بـ 2 فرنك، وكنتيجة لذلك لم يعد أحد قادرا على شراء المواشي التي سلمت من المرض وصارت **"فضلة لا بيع فيها ولا شراء"** ولذلك قصر العنتري معنى "الشر" على عدم وفرة "الدراهم" وإلا فالمواد متوفرة لكن بأسعار خيالية.

وكان من تداعيات قلة السيولة أن لجأ الناس إلى الرهن والتعامل بالربا مقابل الفائدة التي ينعتها العنتري بـ"الماردة" حيث يحصل البسطاء على المال من البنك أو من اليهود و**"الماركنتية"**

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

حتى إذا تضاعف الدين فقدوا ممتلكاتهم التي رهنوها وبذلك تضاعفت آلامهم. ويشدد المؤلف هنا على دور اليهود في هذه المآسي التي أصابت الناس بسبب حاجتهم إلى المال وعدم وعيهم بنتائج الاقتراض بالربا[12].

المجاعة في بعض النصوص الفرنسية:

1- فاري(FARE) [13]: يقع هذا الكتاب في 32 صفحة، وهو في الأصل رسالة بعثت بها مجموعة مشكلة من 194 شخصية (تحوي في أغلبها فرنسيين إضافة إلى بعض اليهود والعرب) إلى البرلمانيين وأعضاء مجلس الشيوخ بتاريخ 12 أفريل 1868م، وقد اقترحوا على الإدارة الفرنسية مجموعة من الإجراءات ضمن إصلاح اقتصادي وسياسي شامل يخدم مصلحة المعمرين، حيث طالبوا بحقهم في مؤسسات مدنية وبإدماج تام للجزائريين في فرنسا مع الحفاظ على روابطهم مع وطنهم الأم، لكنهم طالبوا أيضا "بتحرير" البلديات وبالحقوق السياسية التي سلبت منهم يوم تم اعتبارهم "رعايا".

وقد نُشرت الرسالة باسم FARE- وهو كاتب الحكومة العامة بالجزائر- وكانت في الأصل مبعوثة إلى نائبين في البرلمان الفرنسي كما جاء في بدايتها، لكنه بدأ الرسالة بنداء إلى كل أعضاء البرلمان ومجلس الشيوخ (Sénateurs et Députés) ليعرض أمامهم صورة قاتمة لما يحدث في الجزائر التي طُبقت عليها كل التجارب مذكرا بتمتع الكولون منذ 1848 بكل حقوقهم السياسية، ومذكرا أيضا بالانتكاسة الناتجة عن تطبيق النظام العسكري ابتداء من 24 نوفمبر 1860 وتطبيق نظام عسكري في صيغة جديدة (Arabico-militaire) في إطار مشروع نابليون الثالث "المملكة العربية" ابتداء من 07 جويلية 1864.

وبقدر ما هاجمت الرسالة المكاتب العربية بسياستها وأساليبها التي لا رقابة عليها إلا من قِبل قياداتها المباشرة فإن انتفاضتها هذه لم تكن دفاعا عن "الأهالي" بل انتفاضة من أجل سياسة فرنسية صارمة حُدِّدت عناصرها في النهاية وأخذت بعين الاعتبار مجموعة من العناصر منها التالية:

- تفتيت الملكيات لإنشاء الفردية منها
- سحق تعدد الزوجات إذا صار عائقا أمام هذا الأمر

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

- تهميش القيادات المحلية (شيوخ القبائل) وتعويضها بموظفين حكوميين
- فرض الضرائب بصفة منتظمة
- إعادة بعض الأراضي إلى الأهالي كإجراء مؤقت
- تكثيف شبكة السكك الحديدية
- تمكين الأوربيين من مؤسسات مدنية

وعَرضت هذ الرسالة المؤرخة بـ 12 أفريل 1868 مشهدا مرعبا لما خلفته المجاعة، مستهجنة أساليب السلطة الفرنسية في معالجتها، فقد تم تخصيص 2.4 مليون فرنك لمحاربة هذه الظاهرة ولكن إذا علمنا أن مليون شخص مهددون بالمجاعة والتيفوس وأمراض أخرى فإن الشخص الواحد لا يستفيد من هذا المبلغ إلا بما يساوي 2.4 فرنك.

إن الوفيات مرعبة، فقد سُجلت بقسنطينة- خلال شهر مارس المنصرم[14]- 46 ولادة مقابل 288 حالة وفاة رغم أن Le Moniteur de l'Algérie اعتبر المدينة من النقاط التي لم تمسها الظاهرة. أما في سطيف فسجلت 08 ولادات مقابل 222 وفاة. وهذا كله من نتائج هروب الناس من المناطق العسكرية بمدننا. كما أن إحصاءات الحالة المدنية لم تعد ممكنة حيث إن بعضا من الجياع يموتون ببؤس قبل أن يصلوا إلى المدينة التي يقصدونها للحصول على قطعة خبز.

حسب إحصاءات الحكومة العامة، لم تقتل المجاعة منذ شهرين سوى 19 ألفا بينما يتحدث رئيس الأساقفة عن 100 ألف. والواقع أن هذا العدد قد تضاعف. إن الجثث متناثرة على أطراف المستوطنات الفلاحية وطرق المواصلات، ولم يمض يوم دون دفنها تفاديا للوباء الذي بدأ يضرب، ولم يتم إحصاء العرب والأوربيين فقط بل حتى "الأخوات" والممرضين والأطباء أنفسهم. لقد لجأ الأهالي إلى أكل الشوك وجذور النباتات، بل إلى أكل الكلاب، ووصلوا إلى أبعد من ذلك حيث أكلوا لحم البشر، وقد قرأنا أن جنودا فرنسيين راحوا ضحية هذا الفعل في مقاطعة وهران، وهكذا تم "تحضير"[15] الشعب العربي، لقد تراجع 20 قرنا!

وها قد حل الصيف وستهب معه رياح السيروكو والأجواء الوبائية الخانقة من أرض لم تعد قادرة على مواراة موتاها، خاصة وأن مرض التيفوس الحاضر أصلا سيزور الذين لم تقتلهم

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

المجاعة، وإذا كنا نأمل بعض الشيء فإننا نتخوف من كل شيء (Si nous avons peu à espérer nous avons tout à craindre).

2- **بورزي Burzet**[16]: جاء كتاب أسقف الشبلي L'abbé Burzet في 114 صفحة وقد نُشر عام 1869 في أعقاب المجاعة الرهيبة التي سجل بخصوصها بعض المعطيات بناء على شهادات حية قدمها شهود عيان، فقد ضرب الوباء– حسبهم– بقوة مؤديا إلى وفاة عدد غير محدد، أما المجاعة المخيفة فقد هددت القبائل العربية وأرعبتها، وساهم جراد 1866 في مجاعة العام الموالي. وكان الجفاف سببا آخر في هذا كله، فمنذ 1865 صار الشتاء يوفر أمطارا لا تبلل الأرض إلا قليلا، وهو ما سهل عمليات الحرث نوعا ما. أما الربيع فكان في صفاء سمائه يأسٌ، حتى صار الناس يلجؤون إلى قبور الأولياء يستعينون بهم لوقف هذا الجفاف الذي أدى إلى ذبول القمح والشعير، حيث تتقدم مواكب القبائل ولكل منها علم بلون يميزه عن غيره، وآيات القرآن تتلى.

في بعض المناطق التي تتوفر فيها المياه شحت العيون والينابيع سنة بعد أخرى حتى جفت تماما، فصار المعمرون– نظرا لهذه الوضعية– يحفرون آبارهم أكثر كلما قل ماؤها، أما العرب فينظفون الآبار القديمة طمعا في استغلالها. وإذا كانت ظاهرة الجفاف قد مست الجزائر كلها مصحوبة بغزو الجراد فإن المعمرين لم يتضرروا إلى حد المجاعة، بل حتى الأمازيغ الذين يسكنون القرى لم يتضرروا مثلما تضرر العرب رغم امتلاكهم مساحات واسعة، وسبب تضررهم سوء التسيير وقلة التنظيم.

لم يحن شهر أوت 1867 حتى كان الناس قد أفرغوا مطاميرهم "مخازنهم" من محتوياتها من قمح وشعير، ولم تعد الأرض خلال هذا الموسم الحار توفر نباتا ولا عشبا، وفلم يجدوا غير التوجه إلى الأراضي التي مازال بإمكانها الاحتفاظ ببعض الخير وهي التي فيها المستوطنات الأوربية، حيث تنتقل العائلة كلها فيمشي الرجال وهم يحمل العصي لا تفارقهم أبدا، وهي أسلحة خطيرة. أما النساء فتحملن أطفالهن الصغار على ظهورهن "كالقردة" وهن يلهثن متعبات يتبعهن الأطفال النحفاء.

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

يسير الجميع ببطء وبصعوبة وهم يعانون من العطش الذي لا يتغلبون عليه إلا ببعض الماء الساخن، وحين يؤذيهم الجوع يستخرجون جذور النباتات ويطهونها ثم يتناولونها. ويلجأ الرضيع– عبثا– إلى ثدي أمه الذي عانى طويلا من الحرمان؛ فهذه امرأة جلست وعلى ركبتيها ولدان يريدان أن يرضعا غير أنه لا حليب في ثدييها، فمرت عليها امرأة فرنسية فرق قلبها لحال الولدين فأخذتهما وجلست– وهي تستقبل الجدار– وأرضعتهما وكانت أما.

وفي وهران طفل يحاول الرضاع ولأن المجاعة أنهكت أمه لم تجد في ثديها حليبا ترضعه إياه فصارت تدق الأبواب وتسأل الناس الصدقة، وبعد وقت تجمعت لديها قطع نقدية كثيرة غير أن ولدها توفي على صدرها من شدة الجوع. وتلك امرأة عمرها 18 سنة دقت أبواب "الأخوات" تسألهن شيئا تأكله؛ فأحضرن لها مرقا وأمسكن بيدها حتى لا تبتلعه مرة واحدة فيقتلها، وصرن يطعمنها بملعقة ورغم هذه الاحتياطات توفيت بعد ساعة.

وهذه قصة يتيم لم يترك له والداه سوى عنزة وبعض الفول، مرت به مجموعة من المتسولين فقتلوا عنزته وأكلوا مؤونته ورموه في حفرة وظنوه قد مات، غير أن "الأخوات"[17] عالجنه، وسيكون ضمن قافلة اليتامى الذين سأرسلهم إلى مؤسستكم الخيرية[18].

كتب القس حول المجاعة في تنس: لقد رأينا نساء يبحثن في روث الخيول عن حبوب لم يتم هضمها، ثم يغسلنها ويأكلنها بعد ذلك. رأينا أطفالا ينافسون الكلاب على عظام في القمامة، يفتتونها ثم يبتلعونها. أما أوراق الخس والجزر غير النظيفة فكانت تظهر لهم على أنها شيء فاخر... الجثث مرمية على الطرقات.

وكتب عنها من مليانة: بعد مشكلة الكوليرا التي انتهت في الأيام الأولى من شهر أكتوبر رأينا شوارع المدينة قد غزتها فجأة أعداد من الأهالي من كل سن وجنس، منهم من يسأل نقودا، ومنهم من يسأل خبزا، ومنهم من يريد ثيابا. ويلجأ أكثرهم جوعا إلى القمامة يجمعون العظام وبعض الأطعمة، ومنهم من يُمضي يوما أمام إصطبلات الجيش للبحث عن بعض روث الخيول الذي لم يهضم تماما. وقد هالني منظر امرأة تحمل طفلها العاري المتوفى لعلها تحظى ببعض الصدقة.

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

ومع بداية الخريف انتهت الصدقات المخصصة لهؤلاء البؤساء الذين تضاعف الخوف من أعدادهم المتزايدة، رغم أن مؤسسات خيرية كثيرة جندت نفسها لتقديم الإعانات، فدوقة ماجنتا La Duchesse de Magenta أعطت "المثل" بتوزيعها شخصيا للغذاء على هؤلاء، وجاء في تقرير أسقف الجزائر أنهم يطعمون أكثر من 2000 شخص من أهالي المدينة.

ومع الوقت تزايدت أعداد الأهالي الذي صاروا يقصدون المدن الأوربية بصفة "مقلقة" حيث يحاصون أبوابها ويزدحمون في الأماكن العامة ويغرقون حتى الأرياف، والروائح الكريهة تنبعث منهم، فهم لم يشكلوا خطرا على الأمن فقط وإنما على الصحة العمومية[19].

كيف تعاملت السلطة الفرنسية مع هؤلاء المتسولين؟[20]: لم يخفِ المؤلف في كتابه هذا طبيعة الأساليب الهمجية التي تعاملت بها السلطة الفرنسية مع المتضررين من المجاعة، وهو ما يجعل كلام كثير من المؤلفين بم فيهم العنتري محل مراجعة، فقد أقر Burzet أن السلطة وضعت مراكز عسكرية في القرى لحماية المحاصيل، وبذلت جهودا عظيمة لحماية الأوربيين من هذا "الغزو" الذي صار خطره يتزايد باستمرار فصارت تجمع كل العرب الذين يمشون في الشوارع أو يجوبون الحقول رجالا ونساء وأطفالا لإعادتهم إلى قبائلهم.

وللدلالة على هذا أعطى المؤلف مثلا عن مستغانم التي طُرد منها 1270 متسولا في ظرف 05 أيام بين 30 سبتمبر و04 أكتوبر، ثم ينقل شهادة أحد الفرنسيين من وهران كان قد شاهد قافلة المتسولين وهم يُخرَجون من المدينة، وقد تجاوز عددهم 2500 حسب ما أخبره به أحد المسؤولين بصفة "رسمية". وكان نصف هؤلاء من دائرة معسكر ونصفهم من دائرة مستغانم.

وفي طريق هؤلاء إلى مستغانم كانوا موزعين على عدة كيلومترات، شبه عراة لا يحملون من المؤونة شيئا. لقد مثلوا "البؤس" في أوضح صوره، بل مثلوا البلاهة الناتجة عن "الإجهاد الجسدي"... فلم يرَ الشاهدُ بسمةً واحدة ولو على شفتي طفل، بل لم يسمع من هؤلاء كلمة إلا ما دل على الألم.

وحدث أن رمى إلى المتسولين بعض القطع النقدية فالتقطها بعضهم دون محاولة معرفة مصدرها ودون توجيه كلمة شكر واحدة. وكانت معه قطعة خبز رماها من نافذة السيارة مع بعض القطع من فئة 50 فرنكا فارتمى القريبون منه على قطعة الخبز مفضلين إياها على القطعة

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

النقدية. وكانت في المجموعة امرأة تحمل ولدها الذي توفي بسبب قطعة خبز علقت في بلعومه ولم تجد عند من معها جرعة ماء تنجده بها.

ثم مر شاهد العيان هذا ثانية على هذه المجموعة بعد 03 ساعات، وكان الليل قد حل فرأى الناس قد افترقوا جماعات وأشعلوا بعض النار لكن ليس عليها شيء من الطعام، إنما تجمعوا حولها للحصول على بعض الحرارة لعلها تمكنهم من استعادة قواهم المنهارة. وأتم الشاهد روايته بأنه لا يتصور أبدا أن في أوربا من يعرف حقيقة هذه المأساة، معترفا أنه هو ذاته لم يكن يظن أن مجموعة من البشر تعاني كل هذه الفقر المدقع.

3-**لافيجري يستغل المجاعة:** سنعتمد على كتاب Colleville[21] لمتابعة الكاردينال لافيجري[22] في أولى خطواته لإنشاء ما عُرف بجمعية "الآباء البيض" مستغلا ظروف الشعب الجزائري القاسية ليبدأ مهمة "التبشير"[23] في أوساط اليتامى والمغلوبين على أمرهم. فقد حلت المجاعة الرهيبة عقب داء الكوليرا الذي أودى بحياة 60000 شخص خلال ربيع سنة 1867، ولم يكن ممكنا أن يمارس الأهالي والمعمرون من الأعمال في الحقول سوى ما كان ضروريا للحفاظ على أرواحهم، حتى إذا صارت الغلال جاهزة أمطرت السماء جرادا قضى على ذلك كله، أما المجاعة والطاعون فقضيا على خمس السكان الأهالي.

وكانت المأساة رهيبة، فقد ظلت الجثث دون دفن، وراح الأطفال والنساء يأكلون العشب كالأنعام، وظهرت مشاهد أكل لحم البشر في أماكن كثيرة[24]، وحاولت الحكومة –عبثا– أن تخفي حقيقة توسع الكارثة، لكن لافيجري أطلق صرخة مدوية لم تُسمع فقط في فرنسا بل في كل الدول الكاثوليكية، وصنعت له شأنا رغم أن كلماته لم تُعجب الدوائر السياسية آنذاك. وفي خضم المأساة قرر الأسقف البدء بالأطفال ضمن حملته التبشيرية معتبرا نفسه –حسب الإلهام الإلهي الذي جاءه – أبا لليتامى الذين خلفتهم الثلاثية الخطيرة؛ الكوليرا والطاعون والمجاعة.

أصبح الاسقف يستقبل في مقره بـ Saint-Eugène قوافل الأطفال الذين لا تكسو أجسادهم إلا خرق بالية محاولا توزيعهم على أماكن قريبة حين كثر عددهم، ورغم الرعاية مات منهم 500 في وقت قصير. وبعد فترة بنى لافيجري مركزين؛ واحدا في القبة لإيواء الذكور

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

والثاني في بن عكنون للبنات، وبلغ العدد الإجمالي 1000 يتيم. وكان الكاردينال قد أعلن أنه مستعد للتسول في أمريكا اللاتينية– لإتمام مهمته– فجاءته الأموال تبعا لذلك من كل مكان، حتى أن المصاريف العامة قُدرت بـ 200 ألف فرنك لكل عام[25].

كانت هذه أول محاولة جادة لدمج الأهالي، وكان لافيجري يعلم أن عمله هذا سيصطدم بجبهات معينة وربما منها الإمبراطور نفسه، ولذلك استغل المأساة الجزائرية ليكز عمله أكثر. وما إن انفرج الوضع قليلا حتى جاءه الأمر من الحاكم العام الجنرال ماكماهون بإعادة اليتامى إلى قبائلهم، غير أنه أصر على رأيه بالإبقاء على الأطفال ونشَرَ رسالةً عارض فيها أمر الحاكم العام مبديا من خلالها "خوفه" عليهم إن هم سُلّموا "– دون حماية ولا دفاع ولا أولياء– إلى رغبات المسلمين الحيوانية"[26].

كان لرسالة لافيجري صدى كبير، وبدأت ردود التهنئة والتشجيع تصل إليه بعد أن قُرئت في جميع كنائس الجزائر وحتى في فرنسا حيث كانت صحافة المعارضة قد استغلتها للتأثير على نظام الحكم، وقرر الكاردينال الذهاب إلى باريس لمقابلة الإمبراطور، وفعلا حصل منه على وعد بعدم غلق دور اليتامى التي يشرف عليها.

وفي 28 ماي 1868 بعث وزير الحربية المارشال نيال Niel رسالة إلى الكاردينال أكد له فيها رسميا أن الحكومة لم تنوِ يوما التضييق على نشاطاته التي يقتضيها منصب الأسقفية، وأن له الحق في توسيع هذه النشاطات لإيصال "الرعاية المسيحية" للأطفال والأرامل وكبار السن. وكانت بذلك بداية "جمعية المبشرين لمدينة الجزائر" والتي صارت تعرف بـ "الآباء البيض"[27]

1- **الهبات الخيرية وسيلة الكنيسة إلى قلوب الجزائريين:** هذا تقرير[28] قدمه العميد الشرفي لكلية الآداب بستراسبورغ السيد CH. Cuvier[29] بتاريخ 06 ماي 1868حول الهبات التي تلقاها بفرنسا لصالح ضحايا المجاعة بالجزائر:

2- "تبعا للتفاصيل المؤلمة التي قدمتها الصحف حول المجاعة التي تضرب العرب بالجزائر منذ عدة أشهر استلمنا يوم 09 جانفي 1868 هبتين مقدار كل منهما 10 فرنكات لصالح هؤلاء التعساء، وسلمنا وصلا بذلك عن طريق Le Courrier du Bas-Rhin شاكرين مسبقا الأشخاص الذين يودون تقديم مساعدات لنفس الهدف.

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

لقد وصلت هبات أخرى فورا، حتى بلغت قيمة الأموال المجموعة بشكل عفوي 4046 فرنكا. وحتى نضمن الاستخدام الأمثل لهذه الصدقات اتصلنا على التوالي بأناس محترمين ومعروفين جدا بمدينة الجزائر، البليدة، قسنطينة، وهران، مسرغين، مستغانم، تلمسان وعين أرنات، وبعد أن صرنا على قناعة تامة من أن هذه الأموال يتم توزيعها على أرض الواقع بأمانة وبطريقة فعالة من قبل قساوستنا أنفسهم ومن قبل أشخاص ثقات بعثنا إلى[30]:

المدينة	عدد الدفعات	مقدار الهبة
الجزائر	03	800 ف
البليدة	02	200 ف
قسنطينة	05	800 ف
وهران	04 دفعات خاصة بوهران- معسكر- سيدي بلعباس- سان دوني دو سيق	800 ف
مسرغين	03	300 ف
مستغانم	02	350 ف
تلمسان	02	300 ف
عين أرنات	02	300 ف
مجموع ما أرسلناه إلى غاية اليوم		3850 ف

وإننا- إذ نبلّغ إلى كل الذين سلمونا هباتهم- شكرَ مراسلينا الخالص، نرى من الأهمية بمكان أن ننقل إليهم ملخصات من الرسائل الأخيرة التي وردت إلينا من جميع المناطق التي بعثنا إليها الهبات[31].

مدينة الجزائر: 27 مارس. المجاعة مستمرة ونرى من وقت إلى آخر هنا وهناك مشاهد أكل لحوم البشر. توزيع المرق والخبز مستمر على مستوى مستودع الصدقات وبواسطة نساء يشتغلن في المجال الخيري، حيث يتم توزيع ما يتراوح عدده بين 800 و1000 يوميا. وقد نصبنا فرعا تابعا لدار الأيتام البروتستانتية نستقبل فيها يتامى الأهالي.

مدينة الجزائر: 06 أفريل. مأساة العرب تتجاوز بحق كل تصور. حيث نرى هنا وصول جماعات كثيرة؛ رجالا، نساء وأطفالا في حالة انهيار لا توصف.

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

البليدة: 18 فيفري، 19 مارس. لم أر الإنسان أبدا أبدا في قمة البؤس كما أراه اليوم. عائلات كاملة شاحبة هزيلة غير قادرة على الحركة إلا بصعوبة، أطفال في سن العاشرة بأطراف ضعيفة كأنها أطراف طفل أوربي سنه 12 شهرا، جثث حية أعيتها المجاعة حتى لم تعد قادرة على طلب الصدقة.

قسنطينة: 14 و28 أفريل. لم نعد نوزع الخبز والأرز والقمصان– للوقاية من البرد وهتك الأعراض– على 87 عائلة كما كنا قبل شهر ولا على 140 كما كنا قبل 15 يوما، وإنما على 230 عائلة عربية تضم على الأقل 700 شخص من المدينة ومن القبائل التي تعرضت أكثر للمجاعة والتي أضفنا إليها 10 اسر من اليهود الأهالي– بتوصية من السيد الحاخام الأكبر– وهي تعيسة العرب الذين يحصلون كل صباح على كمية من الطعام تكفي ليوم كامل.

وبفضل هذا التوزيع يتم إنقاذ مئات العائلات من الموت جوعا، وإنا سعداء إذ نتمكن كل صباح– بفضل ما يصلنا من إخواننا بفرنسا– من إضافة عدد معين من الجياع الآخرين الذين يحاصرون المنزل **ويصعقوننا** بأصواتهم: "سيدي سجلني" (Sidi! Inscris-moi)

وهران: 31 مارس، ما زالت وضعية العرب التعساء على حالها، إنهم عراة أو يلبسون خرقا في أحسن الحالات، شاحبون ومقززون، يموتون جوعا، ومرض التيفوس (Typhus – الحمى النمشية) منتشر بينهم ونحن نعمل على صنع قمصان نوزعها عليهم.

مسرغين: 14 أفريل، أجدني مجبرا على الحصول– على الأقل– على قمصان تكفي الأطفال ما بين السادسة وسن العاشرة. لقد بدأت عملية تلبيس عدد يتراوح ما بين 30 و36 بهذه القمصان المصنوعة من قماش الكريتون (Cretonne).

مستغانم: 07 أفريل، شكر ووصل استلام لـ 250 فرنكا كنا قد أرسلناها إلى مؤسس إحدى دور اليتامى الخاصة (Orphelinat Privé) والتي تجمع أكثر من 100 يتيم عربي.

تلمسان: 23 أفريل، إن عدد الجياع الذين يقفون أمامي بابي اليوم لم يعد 150 كما كان يوم 24 مارس ولكن 355 بما فيهم الأطفال. لم أتسرع في القيام بشيء حيث لم أرد على طلبات التسجيل التي أرسلها إليّ هؤلاء التعساء منذ وقت مع الدموع إلا بعد القيان بزيارات

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

لمساكنهم. سامحوني لأنني لم أنقل إليكم الصورة المؤلمة المفجعة التي وجدتها في هذه المساكن. إن ذلك يدمي القلب. إن مهمتنا صعبة حيث يلزمنا مبلغ 200 فرنك لأسبوع واحد، وليفق الرب إخواننا ليساعدونا بعطاياهم وبصلواتهم.

عين أرنات: 23 أفريل، أشكركم على هبتكم البالغة 200 فرنك. إن عليّ في هذه اللحظة أن أعتني بـ 292 شخصا. شكرا ثانية لأنكم تذكرتموني، وليباركم الرب دوما.

وبعد هذه الرسائل جاءت قائمة بالهبات التي وصلت ابتداء من 09 جانفي 1868، وبعدها سجلت الملاحظة التالية:

إن المبلغ الباقي في الصندوق (196 فرنكا) والهبات التي ستصل– والتي هي الآن أشد ضرورة من أي وقت مضى– ستعرف وجهتها في القريب العاجل.

ستراسبورغ، يوم 06 ماي 1868

CH. CUVIER

العميد الشرفي لكلية الآداب

الخاتمة: هكذا إذا عرض لنا مجموع هذه النصوص صورة عامة عن المجاعة الرهيبة التي مست الجزائر سنوات 1866–1867–1868 والتي كان سببها الجفاف وحملات الجراد الرهيبة وأفرزت نتائج خطيرة على المجتمع الجزائري. ويمكننا تسجيل بعض النتائج التي توصلنا إليها من خلال البحث، ومنها:

– أهمية هذه النصوص التي أعطت الباحث صورة قريبة مما حدث بالجزائر، وسجل بعضها نوعا من الكرونولوجيا لمآسي الأهالي وللمساعدات المقدمة من قبل بعض الهيئات الخيرية.

– وفاة مئات الآلاف من البشر، ونلاحظ عدم ضبط الإحصاءات المتعلقة بها حيث أقرت السلطة الفرنسية في بعض الحالات بوفاة عدد معين بينما صرحت جهات أخرى بما يفوقه 5 مرات.

– تفشي الأمراض القاتلة كالكوليرا والتيفوئيد والتيفوس.

– انتشار ظاهرة التسول الخطيرة وما تبعها من انعدام للأمن وعدم الاستقرار.

ردمد ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

– إشادة النصوص بجهود الإدارة الفرنسية في محاربة المجاعة مع إقرار بعضها بكثير من التقصير الذي يدل على عدم جدية الفرنسيين في هذا المسعى خاصة وأن السياسات الفرنسية المتتالية عمقت أزمة الجزائريين من خلال طرد القبائل من أراضيها والسيطرة على أجودها والمبالغة في فرض الضرائب إلى درجة التفقير.

– تراجع الإنتاج الزراعي سبع سنوات قبل المجاعة بسبب قلة الأمطار وارتفاع تكاليف النشاط الفلاحي، وهو ما يجعل نجاعة السياسة الفرنسية المطبقة محل نظر.

– عدم تضرر المعمرين من مخلفات هذه السنوات نظرا لامتلاكهم أجود الأراضي والمياه والثروة الحيوانية

– استغلال المأساة الجزائرية لتنفيذ مخططات استعمارية كبرى أخطرها التنصير خاصة على يد الكاردينال لافيجري رغم أن السياسيين لك يكونوا يقبلون بدخول المسلمين في الدين المسيحي، وهو ما لاحظناه من خلال موقف الإدارة الفرنسية من نشاط هذا الأسقف.

– استغلال بعض الجهات للوضع الذي خلفته المجاعة للاستحواذ على أملاك الجزائريين، ويظهر هذا على الخصوص من خلال القرض الربوي الذي مارسه اليهود والبنوك الفرنسية.

ملحق: صورة لامرأة تحمل ولدها خلال مجاعة 1869.

Largeau, Victor (Photo d'affamés durant la famine de 1869 en Algérie)

ردمد ISSN 2170–1636 الإيداع القانوني: 2014– 1156 Depot Légal

الهوامش:

1– حمدان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ط 2، 1982، ص 235

2 - Bernard Kayser, «Structures et réformes foncières dans le bassin méditerranéen», Tiers-Monde, tome 1, № 3,1960, p 293

3 – ابن عم الأمير عبد القادر حيث يلتقيان في الجد الرابع.--4 – نقلا عن: ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ج 4، العهد العثماني، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 1، 1984، ص 231--5– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998، ط 1، ص 342 وما بعدها--6– واضح أن هذه المجاعة لم ترحم أحدا فمن لم تصبه بالموت أصابته بالمرض أو الفقر، فقد كتب المزاري: "وفي سنة سبع وستين وثمانمائة وألف، الموافقة لسنة أربعة وثمانين ومائتين وألف، حصلت المجاعة العظمى بسائر البلاد، ووقعت تلك المسبغة الكبرى التي أفنت كثير العباد"--ابن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة يحيى بوعزيز، الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، 2009، ص 263--7– صالح العنتري، مجاعات قسنطينة، تحقيق وتقديم رابح بونار، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص 58

8– نفسه، ص 57--9 – نفسه، ص 59--10 – نفسه، ص 63--11 – نفسه، ص ص 63 – 64--12 – نفسه، ص 66

13 - Faré, La famine en Algérie et les discours officiels. Erreurs et contradictions, 1868

14– يقصد مارس 1868--15 – من الحضارة

16 - Abbé Burzet, Histoire des désastres de l'Algérie, 1866-1867-1868, Sauterelle, Tremblement de terre, Choléra, Famine, 1869.

17– لاحظ كيف يقدم الكاتب أمثلة عن عطف الفرنسيين، فهذه فرنسية ترضع التوأم، وهؤلاء "أخوات" يطعمن المرأة بأنفسهن.

18 - Burzet, Op.cit, p 78

19– لعل المؤلف نسي أن الاستعمار الفرنسي هو الذي عمّق آلام الجزائريين.

20 - Burzet, Op.cit, pp 82-86--21 - Colleville, (Ludovic de), Le cardinal Lavigerie, Paris, 1905

22– عُيّن أسقفا بالجزائر عام 1867--23 – استخدمنا كلمة "تبشير" حسب المعنى الذي يقتضيه النص وإلا فكلمة "تنصير" تؤدي معنًى أبلغ

24 - Colleville, Op.cit, p 76

25– رقم يحتاج إلى مراجعة وتحقق

26 - Colleville, Op.cit, p 79--27 - Colleville, Op.cit, p 82--28 - Cuvier, Charles, Compte rendu des dons reçus par M. Ch. Cuvier, en faveur des victimes de la famine en Algérie, le 6 mai 1868. Strasbourg, 1868

29– هو العميد الشرفي لكلية الآداب ومؤلف الكتب التالية:

- Le Rédempteur, 1846, Strasbourg, 1846--- L'Eternel est mon cantique, 1831, Strasbourg, 1851--*- En souvenir d'un époux et d'un père chéri, discours du pasteur Reichard et du professeur Cuvier aux funérailles de Gustave-François Herrenschmidt, le 16 octobre 1868, à Strasbourg, Strasbourg, 1869

30– الجدول من تصميمنا تسهيلا لوصول المعطيات العددية إلى القارئ--31 – يقدم مجموع هذه التقارير كرونولوجيا للمجاعة بالجزائر